ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: http://www.jtuh.tu.edu.iq

Rhetorical context For laughter and crying in the Quranic discourse

Assist.Prof.Dr.Adnan.Abdul Salam Asaad

Department of Arabic language
College of Education for Girls
University of Mosul
Nineveh , Iraq

***Keywords*:**

crying
laughter
Rhetorical context
Quranic discourse

ARTICLE INFO

Article history:
Received 8 Dec .2019
Accepted 16 Dec. 2019
Available online 22 Dec 2019
Email: adxxx@tu.edu.iq

ABSTRACT

This study comes to shed light on the impact of the rhetorical context of the subjects of laughter and crying in the Quranic discourse,The research methodology came by dividing it into two studies that are preceded by a preliminary and read by a conclusion, In the introduction, I addressed the terms title (laughing and crying) (Quranic discourse) and (rhetorical context), Then the two topics came to simplify the view and analysis in the dualities of laughter and crying in the light of an analytical method for evidence in light of objective demands emanating from the Qur'anic verses themselves. Then the first topic came under the title: The Rhetorical Context of Laughter in the Quranic Discourse and has four demands, As for the second topic, it came under the title: The rhetorical context of crying in the Quranic discourse, and under it are three demands. Then the conclusion came to present the most important results of the research.

© 2019JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.26.12.2019.11

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

السياق البلاغي لثنائية الضحك والبكاء في الخطاب القرآني

أ.م.د. عدنان عبد السلام أسعد / جامعة الموصل/ كلية التربية للبنات/ قسم اللغة العربية

الخلاصة:

الحمد لله رب العالمين , والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين , وعلى آله الطيبين الطاهرين, وصحبه الميامين. وبعد

تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على أثر السياق البلاغي لمادتي (الضحك) و(البكاء) في الخطاب القرآني, وقد تناول البحث الألفاظ التي جاءت بها وجذورها في القرآن الكريم حصراً, ولم يتناول الألفاظ الدالة على معانيهما مثل (الابتسامة) و(الفرح) و(الحزن) و(نزول الدمع) وغيرها. وكان اختيارنا للتطبيق في القرآن الكريم عن قصدٍ ليكتمل عقد المنفعة ببركة هذا الكتاب الكريم, الذي جاء ممثلاً لأعلى صور البلاغة وأبلغ معاني القول فأعجز الخلق كلهم وأخذ بعقولهم, وسحرهم بحسن لفظه وروعة نظمه. وجاءت الدراسة لتكشف الأسرار البلاغية لهاتين المادتين وتسلط الضوء عليها بعد قصور بعض الدراسات التي عالجت مثل هذا الموضوع.

واقتضت خطة البحث تقسيمه على مبحثين يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة, تناولت في التمهيد مصطلحات

العنوان: (الضحك) و(البكاء) و(الخطاب القرآني) و(السياق البلاغي). ثم جاء بعد ذلك المبحثان ليبسطا القول في مادة البحث وعينته رؤيةً وتحليلاً في ضوء منهجٍ بلاغي تحليلي للشواهد في ضوء مطالب موضوعية منبثقة من الآيات القرآنية نفسها, فجاء المبحث الأول بعنوان: السياق البلاغي للضحك في الخطاب القرآني وفيه أربعة مطالب. أما المبحث الثاني فجاء بعنوان: السياق البلاغي للبكاء في الخطاب القرآني وتحته ثلاثة مطالب. ثم جاءت الخاتمة لتعرض أهم النتائج التي توصل اليها البحث.

التمهيد. تأصيلُ مصطلحات العنوان:

- **أولاً :**

❖ **الضحك:**

في اللغة ضد البكاء ويدل على الانكشاف والبروز, وهو مصدر من الفعل الثلاثي (ضحك), يُقال: ضحك الرجل وهو يضحك ضحكاً إذا انبسط وجهه وانفرجت شفتاه وبدت أسنانه لسرور نفسه وانشراحها, ومن هذا أُطلق على المقدمة من الأسنان الضواحك؛ لأنها تظهر واضحة عند التبسم, ومنه ضحكت الأرض عن النبات إذا أخرجته, وضحك السحاب : برق وتلألأ. والضحك: العجب, وهو أيضاً الثغر الأبيض , ويطلق على العسل والزبد والثلج؛ لشدة بياضه[1]. مما سبق يتبين لنا أن الضحك هو حالة فرح تكون في الإنسان تجعل وجهه منبسطاً وأسنانه ظاهرة بارزة لسرور في نفسه.

❖ **البكاء:**

في الدائرة اللغوية يدل على سيلان الدمع, يُقال: بكى الرجل يبكي بكاءً فهو باكٍ, إذا سالت دموعه حزناً وكمداً مع الصوت أو بدونه, وقد يوجد مع الفرح والسعادة أحياناً, ومع الخشية والخشوع أحياناً أخرى. قال ابن منظور (ت711هـ):" البُكَاء يُقْصَرُ وَيُمَدُّ؛ قاله الْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُ، إِذَا مَدَدْتَ أَردتَ الصوتَ الَّذِي يَكُونُ مَعَ الْبُكَاءِ، وَإِذَا قَصرت أَردتَ الدُّمُوعَ وَخُرُوجَهَا"[2].

أما المعنى الاصطلاحي للبكاء فلا يخرج عن معناه اللغوي فهو "حَالَةٌ تعتري الْإِنْسَان من الْهم وضيق الْقلب مَعَ جَرَيَان الدمع على الخد"[3]. وقد يكون سببه الفرح أو الخشية أيضاً.

- **ثانياً . الخطاب:**

الخطاب من أبنية المفاعلة يدل في مفهومه اللغوي على مرجعة الكلام وتوجيهه نحو الآخر, وهو مصدر من الفعل خاطب يخطب مخاطبة وخطاباً, وهما يتخاطبان : أي يتحاوران, والخطاب كل كلام بينك وبين آخر[4]. والخطب: الشأن والأمر عظم أو صغر , والخُطبة بالضم تُطلق على الكلام الموجه الذي يُلقى على الناس من منبر ونحوه. والخِطبة بالكسر: طلب المرأة للزواج[5]. مما سبق يتبين لنا أن مفهوم الخطاب يدور حول الكلام الدائر بين شخصٍ وآخر ومراجعته, وقد ورد في القرآن الكريم بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (النبأ: 37), وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص: 20) أي الكلام البين المقنع الذي لا لبس فيه يعجز المخاطب به عن الإجابة عنه.

أما الخطاب اصطلاحاً فهو "نقل الكلام الموجه نحو الغير للإفهام"[6] والتأثير عليه وإقناعه وأداته بذلك اللغة الضامنة للتواصل مع الغير وإيصال المعنى المراد عن طريق هذا الكلام. ويتألف من أربعة عناصر هي : المُرسِل, والمرسَل إليه, والرسالة, والهدف, فالخطاب رسالة تواصلية إبلاغية قصدية متعددة المعاني تصدر عن موجه إلى متلقٍ معين عبر سياقٍ محدد, وهو يفترض من متلقيه أن يكون سامعاً له لحظة انتاجه ولا يتجاوز سامعه إلى غيره[7]. ويُمثل الخطاب جملةً من الملفوظات والتعابير التي تُنظم في سلسلة معينة لتنتج دلالة ما, وتحقق أثراً متعيناً عن المخاطبين في محاولة لدفعهم نحو الإقناع فالخطاب" وسيلة المتخاطبين في توصيل الغرض الإبلاغي من المخاطِب إلى المخاطَب, ويتَّسم بأنه كتلة بنيوية متماسكة الأجزاء"[8].

والخطاب القرآني –مدار بحثنا– فهو الخطاب الربَّاني الصادر من الله –ﷻ–, المُنزَّل على رسوله –ﷺ–, المُتعبد بتلاوته, المُعجز في لغته وأسلوبه ونظمه وبيانه[9].

- **ثالثاً . السياق:**

يدل السياق في اللغة على تتابع الشيء على نسقٍ واحدٍ, وهو مصدر الفعل سوق, وأصله سِواق قُلبت الواو ياءً لكسرة في السين. قال ابن فارس(ت395هـ):" السِّينُ وَالْوَاوُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ حَدْوُ الشَّيْءِ. يُقَالُ سَاقَهُ يَسُوقُهُ سَوْقًا. وَالسَّيِّقَةُ: مَا اسْتِيقَ مِنَ الدَّوَابِّ. وَيُقَالُ سُقْتُ إِلَى امْرَأَتِي صَدَاقَهَا، وَأَسَقْتُهُ. وَالسُّوقُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ هَذَا، لِمَا يُسَاقُ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْجَمْعُ أَسْوَاقٌ. وَالسَّاقُ لِلْإِنْسَانِ وَغَيْرُهُ، وَالْجَمْعُ سُوقٌ، إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْمَاشِيَ يَنْسَاقُ عَلَيْهَا"[10]. ومنه تساوقت الإبل إذا تتابعت, يقول الدكتور تمام حسان تأكيداً لهذه المعاني اللغوية إن المقصود بالسياق التوالي, ومن ثم ينظر إليه من ناحيتين الأولى: توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك, والسياق من هذه الزاوية يُسمى (سياق النص), والثانية: توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال ومن هذه الناحية يُسمى السياق(سياق الوقف) [11]. فالسياق اصطلاحاً "مجموعة من الرموز المختلفة في الوظائف, وهي على الأقل ثنائية, وتقوم بين أطرافها علاقة من التَّكيف المتبادل"[12].

وقد عُني الباحثون قديماً وحديثاً بهذا المصطلح لأهميته, فهو في كثير من الأحيان يقوم بتحديد الدلالة المقصودة للكلمة في جملتها, ومن هذا أشار علماؤنا من أهل اللغة والبلاغة إلى أهميته وتطلبه مقالاً مخصوصاً يتلاءم معه , وقالوا عبارتهم الموجزة البليغة الدالة (لكل مقام مقال), فالسياق متضمنٌ داخل التعبير المنطوق بطريقة ما ولذلك ركّز النحاة على اللغة المنطوقة والأحوال المحيطة بها, فالكلمة لا معنى لها خارج السياق الذي ترد فيه, وربما اتحد المدلول واختلف المعنى طبقاً للسياق الذي قِيلت فيه العبارة, أو طبقاً لأحوال المتكلمين والزمان والمكان الذي قيلت فيه[13]. فالمقام هو السياق الذي تمر به الكلمة عندهم.

ومما سبق يتضح أن الربط الصياغي هو الذي يمنح كل مفردة وظيفتها في السياق أو المقام الذي جيء بها لأجله؛ لأن السياق يرشد إلى تبيين المراد من المتكلم فهو يحدد معاني الألفاظ ودلالاتها التي

تشير بدورها إلى المعنى اللغوي الكلي للنص ضمن علاقته بالسياق, فهو الذي يعين قيمة الكلمة, إذ إنَّ لكل كلمة في سياقها معنى وقيمة حضورية, فإذا انفصلت عنه فهي كلمة مفردة كما سبق ذكره[14].

وقد قرر عبد القاهر الجرجاني–رحمه الله–(ت471هـ) قديماً بأنَّ ليس للألفاظ مزية وهي مفردة بقوله: "فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً، أنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرَّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللّفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلَّق له بصريح اللفظ, ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"[15]. ومن هنا أسس لنظرية النظم البلاغية التي عنت بالنظم القرآني, هذا النظم الذي له خصيصة دون غيره؛ لأنَّه بتعدد وجوهه يتيح إمكانات أكثر في الأداء والتعامل مع النص, إذ يتلاءم الجانب اللغوي مع النحوي والبلاغي لتحقيق جانب الإبلاغ والتأثير لدى المتلقي, وهو المتوخى من القرآن الكريم. ومن غير فهم النظم لا يمكن أن نكشف عن نسق المعاني ولا أن نحدد أبعادها أو نكشف عن الفروق الدلالية والبلاغية الدقيقة بينها من جهة, وبين خصوصيات التراكيب من جهة أخرى, ومن ثم ربط هذه الخصوصيات بالسياق والغرض العام[16]. وبهذا أدرك علماؤنا الأوائل من اللغويين والبلاغيين أهمية السياق وأثره في توجيه المعنى المراد وتحديده, من حيث انَّ المعنى القرآني لا يتحقق إلا بعد معرفة السياق العام الذي أتى فيه الخطاب, وبه يزول الإشكال ويتعين المحتمل ويُخصص العام ويُفسر المبهم.

ومن نظرة علمائنا للسياق وأهميته وعنايتهم به أفاد من أتى بعدهم من علماء اللغة المحدثين في الغرب وتوجّهوا هم أيضاً للعناية به ودراسة أثره في فهم المعنى, لذا نجد فيرث يعمد إلى صياغة نظرية السياق الحديثة التي صارت فيما بعد مرتكزاً لأصحاب المنهج السياقي التي من أهم أصولها: أن الكشف عن المعنى لا يكون إلا بوضع الألفاظ في سياقات مختلفة, إذ يتحصّل المعنى بحكم العلاقة بين الألفاظ وما يجاورها, فضلاً عن أنَّ دراسة المعنى تتطلب تحليلاً واعياً للسياقات وللمواقف التي ترد فيها الألفاظ حتى ما كان منها غير لغوي, فقد دعت نظريته إلى اعتماد المقام أو العناصر المحيطة بالموقف الكلامي, مثل طبيعة الكلام ودلالاته المختلفة, وأثره الفعلي على المتلقي, وشخصية المتكلم والمتلقي, والظواهر اللغوية والاجتماعية المحيطة بالنص[17].

وهذا جون لاينز يذهب إلى ما ذهب إليه الجرجاني في أنَّه "لا يُمكن فهم أي كلمة على نحو تامٍ بمعزلٍ عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها, والتي تُحدد معناها"[18]. وبنحوٍ من هذا يقول فندريس: "الذي يعيّن قيمة الكلمة في كل الحالات التي ناقشناها إنما هو السياق, إذ إنَّ الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جوٍ يحدد معناها تحديداً مؤقتاً, والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي بوسعها أن تدل عليها"[19].

مما سبق كله يتبيّن لنا أن السياق البلاغي وأهميته من حيث ربط الكلام بمقام استعماله, والتركيب الذي جاء فيه من تقديم وتأخير, وحذف وذكر, وحقيقة ومجاز, وغيرها من طريق البلاغة. فتضام الكلمات فيما بينها يكّون لنا وحدات تركيبية هي الأساس في الانطلاق للدراسة على مختلف أنواعها, وهذه

الوحدات تكوّن النص الذي يعني بأبسط صوره السياق اللغوي المتمازج مع سياق الحال(المقام), مع ما يرافقه من أحداث. فالعلاقة بين هذه العناصر متداخلة, وكل واحدٍ منها يكمل الآخر, ولا غنى لأحدهما عن الآخر. وسنقوم في دراستنا المتواضعة هذه في الكشف عن ثنائية الضحك والبكاء وسياقها البلاغي الذي أتت فيه, مع بيان دقة الاستعمال القرآني لها, وتوظيفها للدلالة على المعنى المراد أتمّ دلالة وأوضحها على وفق العلاقات والتراكيب الداخلية للنص القرآني التي تربط الكلمة بالجملة ثم بالنص ثم بالسياق .

.....

❖ **المبحث الأول. السياق البلاغي للضحك في الخطاب القرآني:**

وردت مادة الضحك في الخطاب القرآني في عشرة مواضع وبسياقات متعددة دلّت بدورها على المعنى المراد من هذه المادة وعلى النحو الآتي:

❖ المطلب الأول. الضحك استهزاءً وسخريةً:

جاء الضحك دالاً على الاستهزاء والسخرية في خمسة مواضع , هذا الضحك الذي يصوّره الخطاب القرآني وهو صادرٌ استهزاء وسخرية من المعرضين عن الحق المكذبين بالرسل واتباعهم. ومن ذلك استهزاؤهم بالأنبياء ورسالتهم وما جاءوا به من كتب سماوية وذلك في موضعين, أولهما قوله تعالى: : ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47)**﴾ (الزخرف: 46-47). يعرض الخطاب القرآني في هاتين الآيتين عرضاً موجزاً لقصة سيدنا موسى-عليه السلام- مع فرعون وملئه. عرضٌ يُظهر حقيقة هؤلاء المعرضين عن الحق وهم يضحكون مستهزئين من سيدنا موسى-عليه السلام- ورسالته, وهذا ديدن أهل الباطل والضلال السخرية من الحق وأهله.

ولابد من بيان السياق البلاغي لهذا الخطاب الذي أتى فيه فعل الضحك استهزاء في قوله: ﴿**هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ**﴾ ليتضح لنا الاستعمال الدقيق لهذه اللفظة في هذا السياق دون غيرها.

افتتح الخطاب بأسلوب خبري مؤكد ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى**﴾ , إذ أكد مضمون الجملة بمؤكدات عدة هي (الواو) الموطئة للقسم أي: والله لقد أرسلنا, و(اللام) , و(قد), وجاءت هذه المؤكدات مناسبة لحال المخاطبين من مشركي مكة إبان التنزيل إذ كذّبوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ورسالته كما كُذّب موسى -عليه السلام-, فكان في بدء الخطاب بهذا الأسلوب تعريض بمشركي مكة من أن يصيبهم ما أصاب فرعون وملئه من العذاب بسبب تكذيبهم.

وللتأكيد على مصدر الوحي الإلهي للأنبياء -عليهم السلام- أوثر التعبير بفعل الإرسال دون غيره مثل (البعث) أو(الخطب) وغيرهما؛ لأنَّ الإرسال لا يكون إلا برسالة وما يجري مجراها[20], ومما يعضد هذا المعنى التعريف بالإضافة في ﴿**بِآيَاتِنَا**﴾, إذ أضاف الآيات إلى ضمير(نا) للتعظيم العائد إلى الله -عز وجل-, وحققت هذه الإضافة تعظيم الرسالة وتشريفها؛ لعظم مرسلها سبحانه. ويؤكد مصدر هذه الرسالة

الإلهية أيضاً كلام سيدنا موسى–عليه السلام–﴿**إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ بتأكيد الرسالة ومصدرها وهي ذاتها حقيقة الأنبياء والرسال ورسالاتهم.

وأوثر التعبير بالرب دون غيره مع إضافته للعالمين–عليه السلام–﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ للتدليل على استحقاقه سبحانه للعبادة دون ما يشركون فهم الخالق لهم والرازق. فضلاً عن شموله لباقي الأسماء الحسنى , قال الرازي–رحمه الله–(ت606هـ): "النَّاسَ أَطْبَقُوا عَلَى أَنَّ الْحَوَادِثَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَى الْمُوجِدِ وَالْمُحْدِثِ حَالَ حُدُوثِهَا، لَكِنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي أَنَّهَا حَالَ بَقَائِهَا هَلْ تَبْقَى مُحْتَاجَةً إِلَى الْمُبْقِي أَمْ لَا؟ فَقَالَ قَوْمٌ: الشَّيْءُ حَالَ بَقَائِهِ يَسْتَغْنِي عَنِ السَّبَبِ، وَالْمُرَبِّي هُوَ الْقَائِمُ بِإِبْقَاءِ الشَّيْءِ وَإِصْلَاحِ حَالِهِ حَالَ بَقَائِهِ، فَقَوْلُهُ: رَبِّ الْعالَمِينَ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ فِي حَالِ بَقَائِهَا"[21]. فضلاً عن أن هذه الإضافة دلّت على شمول ربوبيته للكون كله, وانفراده بالخلق والتدبير والتكوين فيه.

وينتقل الخطاب بعدها مختصِراً على طريقة القرآن بالإيجاز القصصي في قوله: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا**﴾, فهو مرتب على محذوف, وتقديره: فطلبوا منه الآيات الدالة على صدقه فلما جاءهم بالآيات التي طلبوها كذبوا بها وسخروا منها[22].

فالخطاب يعرض موقفهم من سيدنا موسى –عليه السلام– ورسالته, فقد قابلوا هذه الآيات البيّنات بالضحك استهزاءً وسخرية منها في قوله: ﴿**إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ**﴾, هذا الضحك الاستهزائي الذي فاجأوا به سيدنا موسى –عليه السلام– مباشرة كعادة المكذّبين وهذا ما تدل عليه (إذا) الفجائية فقد أشارت إلى أن ما بعدها حصل دون ترقّبٍ, ولزيادة في "تشنيع أمرهم وموقفهم عمد النظم القرآني إلى القصر بضمير الفصل (هم) وكأنهم لا يضحكون إلا استهزاء به وبما جاء به، ولذلك قدم الجار والمجرور(منها) على الفعل المضارع الذي أوحى بضحكهم على سبيل الاستمرار والتجدد، فضلاً عن ان هذا الضحك هو كناية عن الاستخفاف بالآيات"[23]. وفي هذه الجملة أيضاً تسلية للنبي –صلى الله عليه وسلم– عمّا كان يلقاه من قومه في مكة من تكذيب وسخرية واستهزاء, وفيها تثبيت له بأنْ يستن بسنة أولي العزم من الرسل–عليهم السلام– في الصبر على التكذيب والأذب والاستهزاء.

وموقع (لما) في الآية الكريمة ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ**﴾ كأداة متضمنة معنى الشرط دليلٌ على ترابط الحدث بين جملة فعل الشرط: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا**﴾, وجوابها: ﴿**هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ**﴾, وبوساطة عنصر لفظي آخر هي الأداة (إذا) الفجائية, إذ لما أُريد تحقيق عنصر المفاجأة أُستبدلت أداة الربط (الفاء) الدالة على السببية بـ(إذا) الفجائية, ليحكم بذلك الربط الدلالي والبلاغي بين الجملتين, فضلاً عن كونهما رابطة لجواب الشرط بفعله, بما يحكم ركني التركيب ويقضي على أي تفكك في البنية والمعنى في هذا السياق البلاغي[24]. ومما سبق لا يخفى ما لعناصر الاتساق من الحذف القصصي, وتكرار لفظ (آياتنا), فضلاً عن الإحالة بالضمائر في سياق الآيتين من أثر وبلاغة في ربط وانسجام الخطاب القرآني المتضمن لفعل الضحك.

وفي موضعٍ آخر يعرض الخطاب القرآني لضحك مشركي مكة مستهزئين من النبي –صلى الله عليه وسلم– ورسالته وساخرين منهما وذلك في قوله تعالى: ﴿ **أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ** ﴾

(النجم: 59-60). فالآيتان تصوّران حال المشركين من أهل مكة من استهزائهم بالنبي-ﷺ- وسخريتهم منه وهو يتلو عليهم القرآن وما فيه من أخبار سابقة ولاحقة وبعث بعد الموت.

ولما كان هذا حالهم افتتح الخطاب بالإنشاء الطلبي بأسلوب الاستفهام الإنكاري التعجبي "إنكار وقوع العجب منه من المشركين, ثم توبيخ لهم عليه-على العجب- لأنهم لو كانوا يعقلون لبكوا من خشية الله بدل أن يضحكوا... يُضاف إلى هذا الانكار التوبيخ ثم تجهيل المخاطبين باعتبار ما وصفوا به"[25]. ومن بلاغة التركيب في الخطاب تقديم شبه الجملة ﴿**مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ**﴾ على الفعل ﴿**تَعْجَبُونَ**﴾؛ لأنَّ محط الإنكار ليس مجرد العجب فقط, بل كون الحديث المشار إليه هو المتعجب منه.

وبعد هذا الاستفهام تأتي الجملة الخبرية ﴿ **وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ**﴾ لتقريعهم وذمهم على الحال التي هم فيها, فهم بدل أن يتعظوا من القرآن أخذوا يضحكون استهزاء به وسخرية منه, وكان الأجدر بهم البكاء خشية من الله -ﷻ-. ولتأكيد فعلهم القبيح أوثر التعبير بنسق الأفعال المضارعة ﴿**تَعْجَبُونَ**﴾, ﴿**تَضْحَكُونَ**﴾, ﴿**لا تَبْكُونَ**﴾ للدلالة على استمرارهم بالاستهزاء والسخرية كلما سمعوا القرآن من النبي-ﷺ- , قال البقاعي -رحمه الله- (ت885): "لما كان المعجب قد يمسك نفسه عن الضحك, بيّن أنهم ليسوا كذلك فقال: (وتضحكون) أي استهزاء تجددون ذلك في كل وقت مبتدأ ضحككم منه"[26], وفي هذا زيادة تقريع لهم وتوبيخ, فضلاً عمّا فيه من الزجر والوعيد أن يكون مصيرهم مثل مصير المكذبين من قبلهم الذين مرّ ذكرهم قبلها في قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى(50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى(51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى(52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى(53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى(54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى(55)هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى(56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ(57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ(58)**﴾(النجم:51-58).

وفي سياق آخر يأتي الاستهزاء والسخرية عن طريق الضحك من المؤمنين والصالحين وقد ورد هذا في موطنين وكلاهما في معرض مخاطبة الله -ﷻ- للكافرين في الآخرة وتذكريهم بحالهم في الدنيا وهم يُكذبون بالدين ويسخرون من المؤمنين, وأول هذين الموطنين قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110)**﴾(المؤمنون:109-110). يأتي هذا الخطاب القرآني بعد اسدال الستار عن الكافرين في نار جهنم في موقفٍ مهين مخزٍ لهم ،خطاب يعرض خسارة هؤلاء القوم بعدما كانوا جبارين في الأرض متكبرين في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108)**﴾ (المؤمنون :١٠٣-١٠٨). ليأتي موضع الشاهد بتقريعهم بذكر حالهم في الدنيا ﴿إِنَّهُ **كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110)**﴾.

وافتتحت الآيتان بالأسلوب الخبري المؤكد بـ (أن) ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ...** ﴾ وهذه الجملة مستأنفة استئنافاً تعليليَّاً لما قبلها من الزجر عن الدعاء في قوله تعالى: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ والتقدير: لأنَّ الشأن كان فريق من عبادي في الدنيا, وقصد من هذا الاستئناف "إغاضتهم بمقابلة حالهم يوم العذاب بحال الذين أنعم الله عليهم وتحسيرهم على ما كانوا يعاملون به المسلمين، والإخبار فيها مستعمل في كون المتكلم عالماً بمضمون الخبر بقرنية أن المخاطب يعلم أحوال نفسه، وتأكيد الخبر بـ(أن) وضمير الشأن للتعجيل بإرهابهم"[27].

وأوثر التعبير بنسق الفعل المضارع ﴿**يَقُولُونَ**﴾ للدلالة على استمرارهم في هذا الدعاء في مقابل إيثار نسق الفعل الماضي ﴿**آمَنَّا**)﴾ دون نؤمن للدلالة على تحقق الإيمان ورسوخه في قلوبهم، في مقابل هذا الاخبار يأتي الإنشاء الطلبي بصيغة الأمر الخارج الى الدعاء من العباد الى ربهم في قوله ﴿**فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا**﴾. وأوثر التعبير في مقام الدعاء بالرب دون الإله لمناسبته المقام فهو أدعى في بيان ضعفهم وحاجتهم إليه. وعّرف الخبر في قوله: ﴿**خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾ بالإضافة ليدل على الكمال.

وتأتي الآية بعدها لتعرض حالهم من هذا الدعاء وجوابهم للمؤمنين في قوله ﴿ **فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي**﴾ وجيء بالمصدر المزاد عليه بياء النسب ﴿**سِخْرِيًّا**﴾ للمبالغة في وصف سخريتهم من المؤمنين. ومن البلاغة في هذا الخطاب الاستعارة التبعية في ﴿**حَتَّى**﴾ الابتدائية ومعناها معنى فاء السببية، شُبّه التسبب القوي بالغاية فاستعملت فيه (حتى)، وإسناد (الانساء) إلى الفريق مجاز عقلي؛ لأنَّه سببه، أو مجاز بالحذف تقديره: حتى انساكم السخري بهم ذكري[28].

وخُتمت الآية بقوله: ﴿**وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ**﴾ ضحك استهزاءٍ وسخريةٍ, وعبَّر بنسق الفعل المضارع ﴿**تَضْحَكُونَ**﴾ لبيان استمرار استهزائهم بالمؤمنين وتجدده حينا بعد حين. وقدّم شبه الجملة ﴿**مِنْهُمْ**﴾ على الفعل ﴿**تَضْحَكُونَ**﴾ للدلالة على أنَّهم لم يعد لهم شغل الا الاستهزاء بهم والضحك منهم. ولتقريع المكذبين المستهزئين يأتي السياق في الآية بعدها ليزيد من عذابهم بتذكيرهم بحال المؤمنين وفوزهم بالجنة بأسلوب القصر بضمير الفصل بقوله: ﴿**أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ وعبَّر بالاسم ﴿**الْفَائِزُونَ**﴾ في مقابل نسق الأفعال للدلالة على ثبوت حالهم واستقراره فهو فوز دائم باق غير زائل.

والناظر في سياق الآيات يلحظ كثرة الضمائر التي تحيل إلى المؤمنين مثل (هم) في ﴿**مِنْهُمْ**﴾ وفي ﴿**فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ**﴾, والواو في ﴿**يَقُولُونَ**﴾. و(نا) في ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا**﴾. وهذه الإحالة النصية أكسبت هذا الخطاب القرآني قوةً في ترابطه وتماسكه, وأوصلت المعنى المراد في تسليطها الضوء على هذه الثلة الطيبة من المؤمنين، فضلاً عن أنَّ في هذه الإحالات تحقيقاً لفضيلة الإيجاز بترك الإعادة إذ هو "أيسر في الاستعمال، وأدعى إلى الخفة والاختصار، بل إنَّ الضمير إذا اتصل أضاف إلى الخفة ثالثاً هو الاختصار، وهذه العناصر الثلاثة هي من مطالب الاستعمال اللغوي"[29].

وفي موضع آخر نقرأ خطاباً يُذكِّر فيه ربُّ العزة سبحانه المكذبين باستهزائهم بالمؤمنين وسخريتهم منهم في الدنيا في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ**﴾ (المطففين:29)، ليعود بعدها الخطاب ليقلب عليهم الطاولة ببيان حال هؤلاء المؤمنين في الآخرة وهم يضحكون من

الكافرين مستهزئين بهم في قوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)**﴾ (المطففين:٣٤-٣٦). آيات تصوّر ضحك هؤلاء الكفار من المؤمنين في الدنيا استهزاءً بهم ، وسخريَّةً منهم ، ليقابله بعدها ضحك المؤمنين من الكفار يوم القيامة ، من باب الجزاء من جنس العمل مع بيان البون ما بين الحالين والمآلين للفريقين، وفي هذا تسلية للمؤمنين ووعيد وتقريع المكذبين.

افتتح الخطاب بالأسلوب الخبري المؤكد بـ(إنَّ) ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا**﴾ للاهتمام بمضمون الجملة الخبرية وتنبيه المتلقي لما فيها من بيان قبح معاملة الكافرين المجرمين للمؤمنين في الدنيا. وعبَّر بالاسم الموصول ﴿**الَّذِينَ أَجْرَمُوا**﴾ دون الاسم **(المجرمين)** لبيان أنَّ صفة الإجرام متحققة فيهم قد ثبتت من قبل. وجيء بنسق الفعل المضارع ﴿يَضْحَكُون﴾ للدلالة على أنَّ ضحك الاستهزاء والسخرية كان يتكرر كلما مرو بالمؤمنين ويتجدد منهم. ومن بلاغة تركيب هذا الخطاب "تقديم الجار والمجرور﴿ **مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ إما للقصر إشعاراً بغاية شناعة ما فعلوا أي كانوا من الذين آمنوا يضحكون مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك على منهاج قوله تعالى: (أفي الله شك) أو لمراعاة الفواصل"[30]. ويتولى السياق بعدها في كشف صورتهم وهم يسخرون من المؤمنين في قوله:(واذا مروا بهم يتغامزون).

وينتقل الخطاب بعدها ليختم السورة الكريمة بمشهد ضحك المؤمنين في الآخرة على هؤلاء الكافرين المستهزئين في قوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ**﴾. فالمؤمنون في الجنة يطَّلعون على أهل النار من هؤلاء الكافرين المستهزئين بهم في الدنيا فيضحكون منهم استهزاء وسخرية، جزاءً وفاقاً على فعلتهم في الدنيا وهذا ما أفادته الفاء السببية في ﴿**فَالْيَوْمَ**﴾. وقد تعاضدت الأساليب البلاغية في تعميق دلالة الضحك من الكافرين، من ذلك التقديم فقد قدم ﴿**فَالْيَوْمَ**﴾ على الفعل ﴿**يَضْحَكُونَ**﴾ للاهتمام به، وقُدمت شبه الجملة ﴿**مِنَ الْكُفَّارِ**﴾ على ﴿**يَضْحَكُونَ**﴾ للاهتمام بعرض صورة المضحوك منهم (الكفار) تعجيلا لإساءتهم عند سماع هذا الخطاب. ومنه أيضاً تقديم المسند إليه(الذين امنوا) على المسند الفعلي (يضحكون)؛ لإفادة القصر والتخصيص، وهو قصر إضافي. ومن البلاغة أيضاً الإظهار في موضع الإضمار, إذ أظهر(الكفار) في موضع الإضمار(منهم) لتقريعهم وزيادة ذمهم بهذا الوصف الموجب للعقوبة[31]. وأوثر التعبير بنسق الفعل المضارع ﴿**يَضْحَكُونَ**﴾ للدلالة على التجدد والاستمرار ولتصوير المشهد أمام المتلقين.

ومن دقائق التعبير الإسلوبي في هذا السياق التنوع فقد وصف هؤلاء المستهزئين أولاً بأنهم مجرمون ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا**﴾ ثم عاد ليصفهم بالكفر في قوله: ﴿**فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ**﴾، وسرّ ذلك أنَّه وصفهم بالإجرام أولاً لأنَّهم اعتدوا على حقوق الآخرين بأنْ سخروا منهم في الدنيا وسمّوهم بالضالين, أما في الموضع الثاني فوصفهم بالكفار لئلا يظن أحدٌ أنَّ هؤلاء المجرمون ليسوا بكفار، فضلاً عن بيان أنَّ الضحك كان على الكافرين عموماً من هؤلاء الذين كانوا يضحكون وغيرهم[32]. ومما سبق يتبيّن لنا دقّة الخطاب القرآني في اختيار الأساليب البلاغية لعرض الضحك سخريةً واستهزاءً.

❖ **المطلب الثاني. الضحك تعجباً:**

جاء الضحك في الخطاب القرآني للدلالة على التعجب في موضعين الأول منها في قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ(71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**﴾ (هود: 69–73). تأتي هذه الآيات في سياق الحديث عن قصة سيدنا ابراهيم –عليه السلام–مع الملائكة المرسلين الذين جاءوا ليبشروا بسيدنا إسحاق ويعقوب ويخبروا بما قضى الله تعالى به من إهلاك قوم لوط لفسادهم.

وجاء الضحك بنسق الفعل الماضي في قوله: ﴿**فَضَحِكَتْ**﴾. والضحك قيل معناه الحيض، وقيل ضحكت من شدّة الخوف، أو من شدّة الفرح سروراً، وقيل تعجباً من أمر الولادة وهو الأقرب والأدل على المعنى من وجوه عدّة ويقرره السياق كما سياتي، فسيدتنا سارة ضحكت تعجباً من أمر الولادة وأنْ يكون لها ولدٌ على كبر سنها وسن زوجها, ويعضد ذلك أنَّ البشارة مقدمة لفظاً مؤخرة معنى وكأنَّ تقدير الكلام : وامراته قائمة فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت تعجباً وقالت: يا ويلتا أألد وانا عجوز...[33]. وهذا التقدير جاء ما يقرره في القصة نفسها في سورة الذاريات عند قوله تعالى: ﴿**قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمِ**﴾ (الذاريات:٢٨/٣٠)، فهي تعجبت بعد علمها بذلك.

وجيء بنسق الفعل الماضي ﴿**فَضَحِكَتْ**﴾ على طريقة الجملة الخبرية لمناسبته السياق والحال، إذ أدى المعنى المطلوب من التعجب بالبشرى أبلغ أداء تحقيقاً لمقصد الخطاب القرآني في وصف هيئتها و حالها المتمثل بشدّة العجب عند سماعها البشرى. فضلاً عن أنَّه دل على أنَّها المقصودة بالبشارة مع كبر سنها فهي أصبحت بؤرة النص وعمقه إذ استحوذت على مشهد الخطاب.

والناظر في السياق البلاغي للضحك في الآيات يجد أنَّه يعضد ويقرر معنى الضحك تعجباً عن طريق ثلاثة أساليب (النداء) و(الاستفهام) و(الخبر), وأولها الأسلوب الإنشائي الطلبي بالنداء بالويل في قوله: ﴿**يَا وَيْلَتَا**﴾ الذي خرج إلى معنى التعجب من أمر عظيم أو عجيب، وقد كثرت هذه الكلمة على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يتعجبن منه فينادين بذلك مبالغة في بيان شدّة التعجب[34]. ويُقرر هذا التعجب ثانياً الاستفهام المجازي للتعجب والدهشة في: ﴿**أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا**﴾ فقد دلّ على شدّة تعجبها من هذه البشارة، وقد وضع هذا الاستفهام المتلقي من جديد أمام نقطة النهاية (شيخ /عجوز) الدالة على الاستحالة في الإنجاب الى نقطة البداية الولادة في﴿**أَأَلِدُ**﴾[35]. وهذا الاستفهام جاء مناسباً مع غرابة البشارة التي هي مستحيلة حسب عُرف الناس، ولهذا عدل عن صيغة التعجب القياسية الى تعجب غير مباشر عن طريق الاستفهام. وثالث هذه الأساليب المُقررة للتعجب في هذا الضحك الأسلوب الخبري المؤكد بـ﴿**إِنَّ**﴾ و(اللام) في قوله: ﴿**إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾ فقد أُكّد لتقوية مضمون الجملة وتقريره, وأوثر

التعبير باسم الإشارة ﴿**هَذَا**﴾ العائد على خبر البشارة دون الضمير (إنَّه)؛ لما في اسم الإشارة من وصفٍ كاملٍ محسوسٍ وتمييزٍ مبني على المشاهدة, وفيه استعظامٌ للبشرى وتفخيمٌ لشأنِّها مما يزيد التعجب, وهذا الخبر مع كونه مُثبتاً للتعجب مما ذكر من حال استبعاد الولادة, فهو أيضاً تعليلٌ بطريق الاستئناف التحقيقي للتعجب والاستبعاد المستفاد من الاستفهام, وتأكيد له[36]. وذلك فُصلت عن الجملة التي قبلها ﴿**وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا**﴾ لكمال الاتصال بينهما, قال ابن عاشور: "إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ وَهِيَ جُمْلَةٌ مُؤَكِّدَةٌ لِصِيغَةِ التَّعَجُّبِ فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا لِكَمَالِ الِاتِّصَالِ، وَكَأَنَّهَا كَانَتْ مُتَرَدِّدَةً"[37] من تصديق هذا الأمر. وتعجبها واستبعادها لهذه الولادة مع وجود الأسباب ليس بالنسبة الى قدرة الله –ﷻ– فهي تؤمن أن الله على كل شيء قدير, ولكن بالنسبة إلى ما جرت عليه العادة من استحالة ولادة العجوز, وتعجبها الشديد هذا أثار سؤالاً في النفس عن موقف الملائكة منها وجوابهم عليه, وقد جاء جوابهم استئنافاً بيانياً متضمناً لأسلوب الاستفهام وبعده الخبر في ﴿**قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**﴾, فالاستفهام خرج إلى معنى النهي المشوب بالإنكار عليها من تعجبها, والمعنى: لا ينبغي لمثلك أنَّ تتعجب من قدرة الله –ﷻ– وهي في بيت النبوة[38]. وبهذا قرر السياق البلاغي معنى الضحك التعجبي, ودلّ عليه بأبلغ صورة وأدقها.

وإذا انتقلنا إلى الموطن الثاني الذي ورد فيه الضحك تعجباً نقرأ قوله تعالى: ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19)**﴾ (النمل: 16–19). يعرض الخطاب القرآني هنا جانباً من قصة سيدنا سليمان –عليه السلام– عند مروره وجيشه بوادي النمل, خطابٌ في مقام الشكر والامتنان لنعم الله –ﷻ– عليه –عليه السلام–.

وقد ورد الضحك في هذا الخطاب بصيغة اسم الفاعل المسبوق بنسق الفعل المضارع المضعّف﴿**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا**﴾ للدلالة على التعجب من شدّة ذكاء ملكة النمل وفطنتها, وحرصها على باقي النمل الذي عبّرت عنه في كلامها وهي تخاطب النمل عند مرور سيدنا سليمان –عليه السلام– وجيشه بواديهم. والفاء في ﴿**فَتَبَسَّمَ**﴾ سببية للتفريع, فقد فرّع الضحك على كلام محذوفٍ تقديره: ولما سمع كلام النملة تعجب فتبسم ضاحكاً لفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل, واستشعاره –عليه السلام– بنعمة الله –ﷻ–عليه, فتبسم ضاحكاً "لِلْعَجَبِ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهَا: وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَهُوَ إِدْرَاكُهَا رَحْمَتَهُ وَشَفَقَتَهُ وَرَحْمَةَ عَسْكَرِهِ، وَإِمَّا لِلسُّرُورِ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِمَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا، وَهُوَ إِدْرَاكُهُ قَوْلَ مَا هُمِسَ بِهِ، الَّذِي هُوَ مَثَلٌ فِي الصِّغَرِ"[39]. فأداة الوصل السببي (الفاء) قد وصلت سبباً بين آيتين متجاورتين. ولما كان التبسم قد يكون استهزاءً أو استخفافاً دفع هذا التوهم الذي قد يرد بالاحتراس بقوله: ﴿**ضَاحِكًا**﴾ أي متعجبا من قولها وحالها.

وتعجب سيدنا سليمان –عليه السلام– كان لشدة ذكاء ملكة النمل في مقولتها التي تضمّنت أوجهاً بلاغية عدّة منها: أنَّها نادت بـ(يا) و(أي) و(ها) بقولها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ**﴾ للتنبيه على أهمية الأمر وخطورته.

وليشمل نداءها النمل كلهم عَرَّفت (النمل) للاستغراق. وبعد النداء أمرت ﴿**ادْخُلُوا**﴾ بخطاب العقلاء الذي دلّت عليه واو الجماعة فلم تقل: (ادخلن) أو (ادخلي). وقدّمت النداء على الأمر لئلا يفوت الأهم من الكلام وهم منشغلون بالعمل غير متوقعين أو عالمين بما يحدث. ثم نصّت بعدها بقولها: ﴿**مَسَاكِنَكُمْ**﴾ لتستقرّ كل نملة في مسكنها. ثم حذّرت ﴿**لا يَحْطِمَنَّكُمْ**﴾ ناهية من أن يُحطموا, ثمَّ خصّصت سيدنا سليمان -عليه السلام- بالذكر باسمه العلم ﴿**سُلَيْمَانُ**﴾ إشارة إلى معرفتها به من غير ذكر صفة الملك معه, ثم عمّمت بقولها: ﴿**وَجُنُودُهُ**﴾ بإضافتهم إليه, ثم أشارت بـ﴿**وَهُمْ**﴾ ثم عذرت بقولها: ﴿**لَا يَشْعُرُونَ**﴾ الذي جاء على سبيل الاحتراس, إذ دفع توهم أن يكون التحطيم متعمداً, فنفت عنهم الشعور إن وقع منهم الدهس احتراسا, وهذا من أدب الكلام مع سيدنا سليمان -عليه السلام- في بيان العذر إذ لو شعروا بهذا لم يُحطِّموا[40]. فضلاً عن ذلك أنَّها أدت خمسة حقوق "حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ رَسُولِهِ وَحَقَّهَا وَحَقَّ رَعِيَّتِهَا وَحَقَّ جُنُودِ سُلَيْمَانَ فَحَقُّ اللَّهِ أَنَّهَا اسْتُرْعِيَتْ عَلَى النَّمْلِ فَقَامَتْ بِحَقِّهِمْ وَحَقُّ سُلَيْمَانَ أَنَّهَا نَبَّهَتْهُ عَلَى النمل وحقها إسقاطها حق الله عن الجنود في نصحهم4 وحق الجنود بِنُصْحِهَا لَهُمْ لِيَدْخُلُوا مَسَاكِنَهُمْ وَحَقُّ الْجُنُودِ إِعْلَامُهَا إياهم"[41]. وبهذا صوّر الخطاب القرآني عن طريق هذا السياق البلاغي سبب الضحك تعجباً بأدق عبارة وأبلغها.

وينتقل الخطاب القرآني بعد بيان التعجب وسببه إلى بيان أدب الأنبياء -عليهم السلام- وتواضعهم من الله -عز وجل- بقوله: ﴿**قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾, فهو -عليه السلام- لم يعجب بنفسه بل توجّه إلى الله -عز وجل- داعياً ؛ لأنّ المقام مقام شكر واعتراف بفضل الله -عز وجل- عليه توجه إليه سائلاً لإظهار ضعفه أمام نعم الله -عز وجل- عليه, وهذا ما تؤكده الجملة الاعتراضية ﴿**بِرَحْمَتِكَ**﴾ وتقرره, فهو طلب ذلك رحمة من الله -عز وجل- له .

❖ المطلب الثالث. الضحك فرحاً وسروراً:

في سياقات أخرى من الخطاب القرآني يأتي الضحك ليدل على حقيقته فرحا وسروراً في موضعين يؤتى به ترغيباً وترهيباً, من ذلك ما مجيء الضحك مقترناً مع البكاء في سياق وعيد المنافقين بأنهم مهما ضحكوا في الدنيا فسيبكون في الآخرة حسرة على تضييعهم الأمانة وخيانتها, وندماً على فرحهم بخذلانهم لرسول الله -ﷺ-, ومعاقبة لهم على تخلفهم عن رسول الله-ﷺ-, وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82)**﴾(التوبة: 81-82), في هذا الخطاب جاء الضحك الذي صدر من المنافقين في الدنيا دالا على فرحهم وسرورهم بما فعلوه من تخلفهم عن غزوة تبوك, مقترناً بالبكاء الذي سيكون في الآخرة وعيداً وترهيباً وتهديداً على أفعالهم القبيحة مع رسول الله -ﷺ- عندما ظنوا أنهم لبَّسوا عليهم وضحكوا من المتصدقين بالقليل الذين لا يجدون إلا جهدهم وسخروا منهم عن تخلفهم, فالضحك جاء كناية عن فرحهم بذلك وسرورهم.

وجاء نظم الخطاب القرآني في موطن الشاهد تهديداً ووعيداً على طريقة المقابلة بين قوله: ﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا**﴾ وقوله: ﴿**وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا**﴾ بصيغة الإنشاء الطلبي بالأمر عن طريق نسق المضارع المسبوق بلام الأمر. والمتنعم في الخطاب يرى تبادلاً أسلوبياً وتغايراً وظيفياً في بنية المقابلة. إذ عبّر بصيغة الأمر ﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا**﴾ وأراد منه الإخبار بما سيؤول إليه حال المنافقين في الآخرة للدلالة على تحققه وبيان أنَّه حتمٌ وواجب الوقوع والمعنى: إنَّهم إن ضحكوا في الدنيا قليلاً فسيبكون بكاء كثيراً في الآخرة جزاء بما كانوا يكسبون, قال صاحب تفسير المنار: "وَإِنَّمَا كَانَ الْأَمْرُ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَى الْخَبَرِ ; لِأَنَّهُ إِنْذَارٌ بِالْجَزَاءِ لَا تَكْلِيفٌ، وَقَدْ قِيلَ فِي فَائِدَةِ هَذَا التَّعْبِيرِ عَنِ الْخَبَرِ بِالْإِنْشَاءِ: إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَتْمٌ لَا يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْخَبَرِ لِذَاتِهِ فِي احْتِمَالِهِمَا ; لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَمْرِ أَنْ يَكُونَ لِلْإِيجَابِ وَهُوَ حَتْمٌ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْأَمْرَ بِمَا ذُكِرَ يَتَضَمَّنُ الْإِخْبَارَ بِسَبَبِهِ فَيَكُونُ مُؤَكِّدًا لِلْخَبَرِ بِبِنَاءِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ، وَيُقَابِلُهُ التَّعْبِيرُ عَنِ الْأَمْرِ بِصِيغَةِ الْخَبَرِ لِلتَّفَاؤُلِ بِمَضْمُونِهِ كَأَنَّهُ وَقَعَ بِالْفِعْلِ"[42]. وفي هذا التبادل الأسلوبي أيضاً تعريض بالمنافقين بأنَّهم أهلها وصائرون إليها, وفيه وعيدٌ لهم وتهديدٌ بأنّه لن يطيب لهم عيشٌ في الدارين بعد كشف ستارهم وفضحهم, وأنَّ إظهارهم للإسلام وإبطانهم الكفر, وفرحهم بالتخلف عن رسول الله –ﷺ– وصحبه عاقبته الحزن والندم والعذاب في الدارين. فالبكاء "كناية عن حزنهم في الآخرة"[43].

وبهذه المقابلة البديعة رسم الخطاب القرآني صورة لحالهم في الدنيا والآخرة في أوجز عبارة وأدقها, إذ بأربع كلمات فقط دلّ على المطلوب وجمع حالهم بمصيرهم "وإنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة، وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة. وإنَّ يوماً عند ربك كألف سنة مما يعدون. «جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» فهو الجزاء من جنس العمل ، وهو الجزاء العادل الدقيق"[44].

وذُيّلت الآية الكريمة بقوله: ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ لتأكيد مضمون الخطاب وتقريره من استحقاقهم للعذاب في الآخرة بسبب نفاقهم وأعمالهم القبيحة السيئة.

وإذا انتقلنا إلى موضعٍ آخر نجد أنَّ الضحك فرحاً وسروراً يأتي وعداً وبشارة من الله –ﷻ– لعباده المؤمنين للدلالة على الراحة والطمأنينة التي سيؤولون إليها في الآخرة وذلك في قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ(38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ(39)**﴾ (عبس:38–39), يعرض الخطاب القرآني صورةً مشرقةً لحال المؤمنين في الآخرة, فوجوههم مشرقة مسرورة فرحاً وسعادة واستبشاراً بما ينالونه من الفضل والراحة والأمان والرضا جزاء لإيمانهم وعملهم الصالح في الدنيا.

وجاء الضحك فرحاً وسروراً بصيغة اسم الفاعل ﴿**ضَاحِكَةٌ**﴾, وفي التعبير بالجملة الاسمية المتضمنة لاسم الفاعل ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ(38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ**﴾ دلالة على ثبوت واستقرار هذا الفرح والاسفار والاستبشار على وجوه المؤمنين في الآخرة.

ومن بلاغة السياق التعبير المجازي في ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ**﴾, إذ أسند الإسفار والضحك إلى الوجوه على طريقة المجاز العقلي؛ لأنَّها محل ظهورها من باب إسناد الفعل إلى مكانه. وفي التعبير بالوجوه دون الأجسام مجاز مرسل علاقته الجزئية, إذ ذكر الجزء ﴿**وُجُوهٌ**﴾ وأراد الكل (الأجسام) مبالغة في المعنى

المراد وتأكيداً له, لأنَّ علامات الضحك والاستبشار والراحة والاسفار تظهر على الوجوه أكثر من غيرها. ومن البلاغة أيضاً التعبير بالأوصاف ﴿**مُسْفِرَةٌ**﴾ ﴿**ضَاحِكَةٌ**﴾﴿**مُسْتَبْشِرَةٌ**﴾ كناية عن الفرح والسرور والأمن في الآخرة. وتنكير ﴿**وُجُوهٌ**﴾ للتنويع[45].

وبهذا عبّر الخطاب القرآني عن الضحك فرحا وسرورا وعداً وترغيباً بما أعدَّه الله –ﷻ– للمؤمنين في الآخرة من النعيم جزاء على صبرهم وإيمانهم في الدنيا.

❖ المطلب الرابع. الضحك والبكاء من دلائل القدرة الإلهية:

يُعد فعل الضحك والبكاء من دلائل كمال قدرة الله –ﷻ– وانفراده بالخلق والإيجاد؛ لأنَّه سبحانه خالقهما وموجدهما وقد جاءت آيةٌ من القرآن الكريم لتدلّ على هذا المعنى في سياق الحديث عن قدرته سبحانه وكمال صفاته وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى**﴾ **(النجم:43)**, فالخطاب القرآني يُفتتح بالأسلوب الخبري المؤكد بـ(إنَّ) والضمير والجملة الإسمية ليبيّن أنَّ الله –ﷻ– هو موجد الضحك والبكاء وخالقهم, فقد نسب –ﷻ– لنفسه القدرة الكاملة على الإضحاك والإبكاء بصيغة القصر بضمير الفصل ليدل على مطلق اختصاصه –ﷻ– بهذين الفعلين وقصرهما عليه ونفي إسنادهما لغيره فقال: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى**﴾, مع حذف مفعول الفعلين؛ لأنَّهما سيقا لبيان قدرة الله–ﷻ– لا لبيان المقدور عليه, فلاحاجة إلى المفعول[46]. وبهذا أفاد تركيب الآية "قَصْرًا لِصِفَةِ خَلْقِ أَسْبَابِ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لِإِبْطَالِ الشَّرِيكِ فِي التَّصَرُّفِ فَتَبْطُلُ الشَّرِكَةُ فِي الْإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ قَصْرُ إِفْرَادٍ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ نَفْيُ تَصَرُّفِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ هَذَا الْقَصْرُ بِالنَّظَرِ إِلَى نَفْسِ الْأَمْرِ قَصْرًا حَقِيقِيًّا لِإِبْطَالِ اعْتِقَادِ أَنَّ الدَّهْرَ مُتَصَرِّفٌ. وَإِسْنَادُ الْإِضْحَاكِ وَالْإِبْكَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ خَالِقُ قُوَّتَيِ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ فِي الْإِنْسَانِ، وَذَلِكَ خَلْقٌ عَجِيبٌ وَلِأَنَّهُ خَالِقُ طَبَائِعِ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي تَجْلِبُ أَسْبَابَ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ مِنْ سُرُورٍ وَحُزْنٍ"[47]. وفي هذا إشارة إلى "عجائب صنع الله في خلقه، ولا سيما ما في خلق الإنسان وتكوينه من أسرار ظاهرة وباطنة، لم يصل الإنسان نفسه حتى الآن إلى تحديدها، واستكناه حقيقتها، رغما عن مرور القرون الطويلة على حياته فوق سطح الأرض"[48].

ومن بديع نسيج السياق البلاغي للآية الكريمة الطباق بين ﴿**أَضْحَكَ**﴾ و ﴿**أَبْكَى**﴾ الذي دلّ على شمول وصف أحوال الإنسان, فإنَّه لا يخلو من حالي الحزن والفرح, فهو إن لم يكن حزيناً مغموماً كان فَرِحاً مسروراً؛ لأنَّ الله –ﷻ– خلق السرور والانشراح ملازماً للإنسان بسبب سلامة مزاجه وإدراكه؛ لأنّه إذا كان سالماً كان نشيط الأعصاب مما تنشأ عنه المسرة في الجملة وإن كانت متفاوتة في الضحك والقوة, وبهذا أفاد الطباق الإحاطة بأحوال الإنسان بإيجاز يرمز إلى أسباب الفرح والحزن ويذكّر بالله –ﷻ– الصانع الحكيم, ويُبشر إلى أنَّ الله –ﷻ– هو المتصرف بالإنسان لأنّه خلق أسباب فرحه ونكده وألهمه إلى اجتلاب ذلك بما في مقدوره وجعل حداً عظيماً من ذلك خارجاً عن مقدور الإنسان وذلك لا يمتري فيه أحدٌ إذا تأمل فيه ما يرشد إلى الإقبال على طاعة الله –ﷻ– والتضرع إليه ليُقدر الناس أسباب

الفرح, ويدفع عنهم أسباب الحزن. وقدّم الضحك على البكاء ؛ لأنَّ فيه امتناناً بزيادة التنبيه على كمال قدرته –ﷻ–, مع مراعاة الفاصلة القرآنية[49].

وأوثر التعبير بنسق الفعلين الماضيين ﴿**أَضْحَكَ**﴾ و ﴿**أَبْكَى**﴾ دون غيرهما؛ لما فيهما من دلائل القدرة كما مرّ, ولأنّهما من النعم الكبرى التي امتن بها –ﷻ– على الخلق إنسهم وجنهم, واختصهم بها دون سائر المخلوقات, وفيهما دليلٌ على انفراده –ﷻ– بالقهر والإيجاد فالضحك والبكاء "سر من أسرار التكوين البشري لا يدري أحد كيف هما ، ولا كيف تقعان في هذا الجهاز المركب المعقد ، الذي لا يقل تركيبه وتعقيده النفسي عن تركيبه وتعقيده العضوي. والذي تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه وتتشابكان وتتفاعلان في إحداث الضحك وإحداث البكاء. وأضحك وأبكى .. فأنشأ للإنسان دواعي الضحك ودواعي البكاء. وجعله – وفق أسرار معقدة فيه – يضحك لهذا ويبكي لهذا. وقد يضحك غدا مما أبكاه اليوم. ويبكي اليوم مما أضحكه بالأمس. في غير جنون ولا ذهول إنما هي الحالات النفسية المتقلبة. والموازين والدواعي والدوافع والاعتبارات التي لا تثبت في شعوره على حال! وأضحك وأبكى .. فجعل في اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين, كل حسب المؤثرات الواقعة عليه. وقد يضحك فريق مما يبكي منه فريق, لأنَّ وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك .. وهو هو في ذاته. ولكنه بملابساته بعيد من بعيد! وأضحك وأبكى من الأمر الواحد صاحبه نفسه يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبته غدا أو جرائره فإذا هو باك. يتمنى أن لم يكن فعل وأن لم يكن ضحك وكم من ضاحك في الدنيا باك في الآخرة حيث لا ينفع البكاء! هذه الصور والظلال والمشاعر والأحوال .. وغيرها كثير تنبثق من خلال النص القصير ، وتتراءى للحس والشعور. وتظل حشود منها تنبثق من خلاله كلما زاد رصيد النفس من التجارب وكلما تجددت عوامل الضحك والبكاء في النفوس – وهذا هو الإعجاز في صورة من صوره الكثيرة في هذا القرآن"[50].

❖ المبحث الثاني. السياق البلاغي للبكاء في الخطاب القرآني:

جاء ذكر مادة (البكاء) في الخطاب القرآني في سبع مرات فقط , منها ثلاثة مواضع جاءت مقترنة بالضحك وقد مر ذكرها وبيان دلالتها وغرضها في المبحث الأول, أما المواضع الأربعة الباقية فقد جاءت في سياقات متنوعة وعلى النحو الآتي:

❖ المطلب الأول. البكاء خشية وخشوعاً:

ورد البكاء دالاً على الخشية والخشوع والتأثر بالحق عن سماعه في موضعين من القرآن الكريم يمتدح فيهما الله –ﷻ– عباده المخلصين, من الأنبياء والرسل وأتباعهم من المؤمنين الصالحين, وأول هذين الموطنين عند قوله تعالى: ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا(107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا(108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ **(الإسراء: 107–109)**, فقد جاءت آية البكاء هنا ﴿**وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ**

يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ في معرض الحديث عن القرآن الكريم وإنزاله, ومحاججة المشركين المكذبين به, والتعريض بهم عن طريق الثناء على الذين يؤمنون بالقرآن والرسول من أهل الكتاب بوصف حالهم عند سماعه.

وإذا انتقلنا إلى السياق البلاغي للآيات نجدها تُفتتح بالإنشاء الطلبي عن طريق نسق فعل الأمر ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ...**﴾, وهو استئنافٌ بياني موجهٌ للمشركين بتسوية إيمانهم من عدمه عن الله –ﷻ–, وفي هذا ذمٌ لهم وتحقير عن طريق الكناية المستفادة من التركيب, فهو كناية عن الإعراض عنهم واحتقارهم, وفي ذكر أهل الكتاب وتأثرهم بالقرآن بعد الذين أشركوا تقريعٌ للمعرضين من أهل مكة وتعريض بهم بأنَّهم أهل جهل وجاهلية, فضلاً عن أنَّ فيه تسلية للنبي –ﷺ– على طريقة الادماج بينهما, والمعنى: إنَّ إيمانكم بالقرآن ومن جاء به سواء, فهو –ﷺ– مستغنٍ عن إيمانكم به بإيمان الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب قبل نزوله, فهم أرجح عقلاً وأفضل مقاماً, إذ عند سماعهم القرآن ازداد إيمانهم بما في كتبهم من الوعد برسول الله –ﷺ– الذي أنزل عليه القرآن[51].

وأوثر التعبير بـ(اللام) دون غيرها مثل (على) في قوله: ﴿ **يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا**﴾؛ لأنَّ اللام هنا لام الاختصاص, جاءت لتدل على تمام السجود وتمكّن الوجوه من الأرض من قوّة الرغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع لله –ﷻ– بعد معرفتهم الحق وسماعه, فهم يسجدون تعظيماً لله –ﷻ– وشكراً لإنجاز ما وعد به في الكتب السابقة وخشوعاً لما سمعوا من الحق, وتخصيص الأذقان بالذكر دلالة في كمال تذللهم وخشوعهم[52].

ويأتي البكاء بنسق الفعل المضارع في قوله: ﴿**وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ ليدل على التجدد والاستمرار بالبكاء كلما سمعوا الحق, فهم إذا تليت عليهم آيات القرآن مرة بعد مرة يخرون للأذقان ساجدين خشوعاً وتذللاً لربهم –ﷻ– وتأثراً بآياته, وخشية منه –ﷻ–, وسروراً بتوفيق الله –ﷻ– لهم أن هداهم للإيمان, وطمأنينةً لوعده الكريم. ومشهد البكاء هذا مشهدٌ مصور لحالة شعورية غامرة عادمة, يرسم قوّة تأثير هذا القرآن في القلوب الصادقة المتفتحة لاستقبال, العارفة بطبيعة هذا الكتاب وقيمته, بسبب ما أوتيت من العلم, على خلاف المكذبين المعرضين من مشركي مكة[53].

ومن بلاغة التراكيب في نظم الآيات تكرار جملة ﴿**يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ**﴾, الذي جاء مناسباً للسياق؛ لاختلاف الخرور في الحالين, فالأول تعظيماً لله –ﷻ– وتنزيهاً له, والثاني بكاءً خشوعاً بتأثرهم بالقرآن الكريم وتمكنه من قلوبهم, فضلاً عن أنَّ التكرار فيه دلالة تجدد الفعل وتكراره منهم[54].

ومن دقائق السياق البلاغي للآيات التعبير عن الخرور الأول بالاسم ﴿**سُجَّدًا**﴾ , وعن الخرور الثاني بالفعل ﴿**يَبْكُونَ**﴾؛ لأنَّ الفعل مشعرٌ بالتجدد, والبكاء ناشئٌ عن التفكر, فهم في دائماً في فكرة الخشوع والتذكر, ولما كانت حالة السجود ليست تتجدد في كل وقت عبّر فيها بالاسم الدال على الاستقرار والثبوت[55].

وفي سورة مريم تُطالعنا آية أخرى يأتي فيها البكاء خشية وخضوعاً وتذللاً وذلك في قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ**

وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم:58), يعرض الخطاب القرآني في هذه الآية الكريمة صفة عظيمة من صفات أنبياء الله –عليهم السلام– وعباده الصالحين, وهي البكاء خشية وخضوعاً عن سماع آيات الله –ﷻ–, وفي مدحٌ لهم ببيان تواضعهم بين يدي الله –ﷻ– وخضوعهم وتذللهم له.

وافتتح الخطاب القرآني بالأسلوب الخبري المبتدئ باسم الإشارة للبعيد: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** ...﴾ للدلالة على علو منزلتهم وشرفها عن الله –ﷻ–, ومن بلاغة النظم في الجملة الخبرية تعريف طرفي الإسناد ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ** ...﴾ لإفادة معنى القصر والاهتمام بهم, والتنويه بمكانتهم.

والمتنعم في الآية الكريمة يجد أنَّ المقاصد الكلية لسورة مريم تشي ببناء آية السجدة هنا بناءً خاصاً, فسورة مريم تتابع فيها ذكر الأنبياء في سبع وخمسين آية فقد بدأت السورة بالحديث عن الأنبياء –عليهم السلام– من لدن زكريا–عليه السلام– إلى إدريس–عليه السلام– وبينهما: يحيى–عليه السلام–, وعيسى–عليه السلام–, وإبراهيم–عليه السلام– , وإسحاق–عليه السلام–, ويعقوب–عليه السلام–, وموسى–عليه السلام–, وهارون–عليه السلام–, وإسماعيل–عليه السلام– ثم تأتي آية السجدة مشيرة إلى كل من سبق باسم الإشارة ﴿**أُولَئِكَ**﴾ ومركزة مع ذلك على الذرية المؤمنة التي هداها الله –ﷻ– واجتباها وهي ﴿**ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ**﴾ و﴿**وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**﴾ و ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ**﴾, وهذه هي المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية, فآدم–عليه السلام– يشمل الجميع, ونوح–عليه السلام– بشمل من بعده, وإبراهيم–عليه السلام– يشمل فرعي النبوة الكبيرين: يعقوب–عليه السلام– الذي يشمل شجرة بني إسرائيل, وإسماعيل–عليه السلام– الذي إليه يُنسب سيد الخلق حبيبنا محمد– ﷺ– ويُنسب إليه العرب[56].

وينتقل الخطاب بعد ذكر الذرية المؤمنة الطيبة إلى بيان صفتهم العليّة في قوله تعالى: ﴿**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا**﴾ فهم ما ان يسمعون آيات ربهم سجدوا له باكين خضوعاً وخشية, وأوثر التعبير بالاسم الكريم ﴿**الرَّحْمَنِ**﴾ مع تكراره ثلاث عشرة مرة في سورة مريم, للإشعار بأنَّ رحمة الله –ﷻ– هي الماثلة في تصوراتهم فهم يلتمسون فيوضها, وأوثر التعريف بالإضافة في ﴿**آيَاتُ الرَّحْمَنِ**﴾ للإشارة إلى أنَّها فضل ورحمة منه سبحانه؛ لأنَّ "إضافة الآيات إلى اسمه {الرحمن} دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة"[57], فهي فضلٌ منه –ﷻ– ونعمةٌ عظيمةٌ امتن بها على عباده, وبهذا ناسبت هذه الإضافة السياق.

وجاءت مادة البكاء هنا اسماً ﴿**بُكِيًّا**﴾ وهو جمع (باكٍ) على غير قياس, لوصفهم بالخشوع والخشية, وأوثر التعبير بالاسم ﴿**سُجَّدًا وَبُكِيًّا**﴾ دون نسق الفعل (يسجدون ويبكون) لمناسبتها عينة الساجدين وهم الأنبياء –عليهم السلام– وصفوة الخلق, الذين هم في كمال الخوف والخشية والعبادة, ففي التعبير بالاسم إشارة إلى أنَّ خوفهم وخضوعهم دائمان لله –ﷻ–, فهي صفة لا تغيب عنهم أصلاً. فضلاً عن ذلك أن الاسم مناسب للفعل ﴿**خَرُّوا**﴾ ؛ لأنَّ الخرور: السقوط من أعلى, والسقوط من الأعلى يكون سريعاً , وهذا لا يناسبه الفعل الدال على التجدد والحدوث, وينافي السرعة التي أرادها الخطاب, فعبّر بالاسم ﴿**بُكِيًّا**﴾

لوصفهم بسرعة الخضوع والخشوع من آيات الله ﴿**سُجَّدًا وَبُكِيًّا**﴾, وللإشارة إلى تلبسهم بها دفعة واحدة[58]. وفي الجمع بين السجود والبكاء إشعارٌ بأنَّهم مع تعظيمهم لربهم هم أصحاب قلوب رقيقة.

ومن دقائق التعبير القرآني إيثار استعمال نسق الفعل ﴿**خَرُّوا**﴾, لما فيه من تنبيه على اجتماع السقوط من أعلى, وحصول الصوت منهم بالنسيج, فالفعل يحاكي الواقع المراد, فهو لم يدل على مجرد السقوط سجداً, بل أشار إلى الصوت مضاف إليه الوقوع والوجهة في إحداث هذا الصوت, وبهذا كانت الإضافة الدلالية صوتية سواء أكانت في صوت الماء أم بالوقوع والسقوط أم بالتسبيح[59].

ومن الظواهر التركيبية في نظم الخطاب القرآني التكرار, إذ تكرر حرف الجر ﴿**مِنَ**﴾ خمس مرات في الآية الكريمة وهي ﴿**مِنَ النَّبِيِّينَ**﴾ و﴿**مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ**﴾ و﴿**وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ**﴾ و﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ**﴾ و﴿**وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا**﴾, وأفاد هذا التكرار التأكيد على المعنى المراد وإيضاحه, فهو ينتقل بنا عبر الزمن الطويل من جيلٍ إلى جيل, ليطلعنا على هذه الذرية الطيبة بالتفصيل المرتب. فضلاً عن أنَّها بيّنت أنَّ النبيين والمنعم عليهم ذريةٌ واحدةٌ بعضهم من بعضٍ من أبينا آدم –عليه السلام– إلى خاتم النبين سيدنا محمد –ﷺ–.

❖ **المطلب الثاني. البكاء مكراً وخداعاً:**

يأتي البكاء مكراً وكذا في موضوع واحد من الخطاب القرآني وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ**﴾ (يوسف:١٦)، فالآية تصوّر بكاء أخوة يوسف كذباً ومكراً بين حضرة أبيهم يعقوب –عليه السلام– بعدما رموه في البئر ثم باعوه بثمنٍ بخسٍ.

وجاء السياق البلاغي لآية البكاء بالجملة الخبرية ﴿**وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ**﴾. أما مادة البكاء فجاءت بنسق الفعل المضارع ﴿**يَبْكُونَ**﴾، والبكاء معروف وهو خروج الدمع من العين حزنا وألماً، ولكنَّه جاء هنا ليدل على الكذب والمكر والخداع فهو بكاء مصطنع، استعملوه لإقناع أبيهم بما يقولون، فهم دخلوا عليه "يتباكون ويصرخون لانهم لم يبكوا حقيقة بل فعلوا فِعْلَ من يبكي ترويجاً لكذبهم، وتنفيقاً لمكرهم وغدرهم"[60].

وقد سلكوا بذلك طرق عدة جاء ذكرها في الخطاب من ذلك التعبير بالفعل المضارع ﴿**يَبْكُونَ**﴾ في موضع النصب على الحال دون الاتيان بالاسم (باكين)، فالفعل ﴿**يَبْكُونَ**﴾، يصوّر حالهم أدق تصوير وقت دخولهم على أبيهم، فهم أخذوا في البكاء يجددونه شيئا بعد شيء، للتغطية على كذبهم وجريمتهم ،متكلفين بذلك في البكاء, وهذا بيانٌ لمكرهم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهم موته، وهذا مالا يؤديه الاسم(باكين)[61].

ومن هذه الطرق أيضاً اختيار وقت العشاء، فهم استعانوا بالظلام لإخفاء جريمتهم، وليكونوا أقدر على الاعتذار فيه، فهم تستروا به في تجسرهم على ادعائهم بأنَّ الذئب أكل يوسف–عليه السلام– مستعينين بذلك بالبكاء، لئلا تظهر أمارة الكذب على وجوههم, فاختيار هذا الوقت تحديداً صوّر ظلام الليل وأستاره وهم يحاولون تغطية كذبهم فيه. ومما عمّق هذا المعنى تقديم الظرف ﴿**عِشَاءً**﴾ على فعله ﴿**يَبْكُونَ**﴾

للتأكيد على أهمية التوقيت في انجاح تمرير مؤامرتهم، وليكون الوقت مناسباً للحديث عن تلصص الذئب. وبهذا كان وقت (العشاء) بيان لأول أمارات الكذب الذي جاءوا به معهم، فهم جاءوا ملفَّفين في ظلام الليل، خوفاً من أن يفضحهم ضوء النهار ويمزق هذا القناع الزائف المموّه بتلك الدموع الكاذبة التي بللوا بها خدودهم[62].

ومن دقائق الخطاب القرآني إيثار التعبير بالفعل ﴿**وَجَاءُوا**﴾ دون (أتوا)، مع أنَّ كليهما يدلان على المجيء إلا أنَّ الاتيان يختص بسهولة المجيء، أما المجيء فقد يكون فيه شيء من الصعوبة والتكلف, قال الراغب (ت٤٢٥هـ): "المجيء كالإتيان، لكن المجيء أعم؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارا بالحصول"[63]، وهو هنا في الخطاب لا يدل على السهولة إذ يصوّر ثقل المهمة التي جاء بها أخوة يوسف لإقناع أبيهم بها.

❖ **المطلب الثالث. البكاء حزنا وأسفا:**

جاء البكاء حزناً وأسفاً في موضعٍ واحدٍ في الخطاب القرآني وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ**﴾ (الدخان:٢٩). جاءت هذه الآية الكريمة لتُسدل الستار على نهاية فرعون وقومه بعد إعراضهم عن الحق وكفرهم بالله –ﷻ– ورسله، فأغرقهم الله –ﷻ– وجعلهم آيةً لمن بعدهم، وقوله تعالى:﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ...**﴾ جملةٌ خبريةٌ نفت حزن وأسف السماء على موتهم، فهم لا قيمة لهم ولا مكانة. وأوثر التعبير بصيغة الإخبار اهتماماً بمضمون الجملة، وإظهاراً بأنَّها تذكيرٌ مستقلٌ وآية لمن بعدهم من المعرضين من مشركي مكة وغيرهم فيها العبرة والعظة بنهاية الظالمين قبلهم. والفاء في أول الآية فاء التفريع جيء بها لتحقير هؤلاء المتكبرين فرعون وقومه، من خلال بيان هلاكهم, فما كان مهلكهم إلا كمهلك غيرهم من الطغاة, ولم يكن حدثاً عظيماً كما كانوا يحسبونه ويحسب قومه[64].

واختلف في البكاء الوارد في الخطاب فمنهم من حملة على حقيقته وهو الأصل وجاءت في ذلك أحاديث وآثار كثيرة فقد ذكر الطبري(ت 310هـ) أنَّ رجلا أتى ابن عباس –رضي الله عنهما– فقال له: "أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكى عليه; وإذا فقده مُصَلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، قال: فلم تبك عليهم السماء والأرض"[65]، وهذا ما ذهب إليه القرطبي أيضاً (ت671هـ) من أنَّ المراد بالبكاء حقيقته بعد ذكر الآراء فيه بقوله: " وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ، إِذْ لَا اسْتِحَالَةَ فِي ذَلِكَ. وَإِذَا كَانَتِ السموات وَالْأَرْضُ تُسَبِّحُ وَتَسْمَعُ وَتَتَكَلَّمُ– كَمَا بَيَّنَّاهُ فَكَذَلِكَ تَبْكِي، مَعَ مَا جَاءَ مِنَ الْخَبَرِ فِي ذَلِكَ"[66].

ومنهم من حمل البكاء في الآية على المجاز[67]، والمتنعم في الخطاب يرى أنَّ كلا المعنيين تحتمله الآية الحقيقية والمجاز وهذا من خصائص القرآن الكريم التي انفرد بها.

ومن حمل البكاء على المجاز اعتبر أنَّ البكاء هم وارد على طريقة العرب في المبالغة إذا أرادت تعظيم موت رجل عظيم فتقول: أظلمت الشمس, وكسف القمر لفقده، وبكته الرّيح والبرق والسماء والأرض, يريدون المبالغة في وصف المصيبة به، وأنها قد شملت وعمّت على سبيل تسمية الشيء بما ليس له في الحقيقة[68].

ولما كانت الآيات السابقة قد تثير شيئاً من الحسرة والأسى لدى المتلقين نفى ذلك على طريقة التشخيص بالاستعارة المكنية, إذ شبَّه السماء والأرض بإنسان يبكي ثم حذف المشبه –الإنسان– وأبقى لازمه وهو البكاء على طريقة المكنية التي أوحت بمقت هؤلاء الكافرين المتكبرين إذ " لما كان الإهلاك يوجب أسفاً على المهلكين ولو من بعض الناس ولا سيما إذا كانوا جمعاً فكيف إذا كانوا أهل مملكة ولا سيما إذا كانوا في نهاية الرئاسة، أخبر بأنهم كانوا لهوانهم عنده سبحانه وتعالى على خلاف ذلك، فسبب عما مضى قوله: {فما بكت عليهم} استعارة لعدم الاكتراث لهم لهوانهم {السماء والأرض} وإذا لم يبك السكن فما ظنك بالساكن الذي هو بعضه"[69].

وقد أفادت هذه الاستعارة المبالغة في عدم الاعتداد بوجودهم, وعدم الاكتراث بهلاكهم, واستصغارهم, وتحقير أمرهم؛ لأنَّ سبب البكاء على الشيء هو المبالاة بوجوده, فهم ليسوا أهلا للاهتمام, وهو أحقر من أن يُبكى عليهم. فضلاً عن أن إسناد البكاء إلى السماء والأرض ألصق في تصوّر الفجيعة, وأبلغ في تصوير النازلة وذلك حينما أخذ هؤلاء على عجلٍ دون أهبة أو استعداد[70]. وبهذا رسمت الآية الكريمة تعبيراً "يلقي ظلال الهوان ، كما يلقي ظلال الجفاء .. فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء. ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء. وذهبوا ذهاب النمال ، وهم كانوا جبارين في الأرض يطأون الناس بالنعال! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه ، وهو مؤمن بربه ، وهم به كافرون! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه"[71].

ولتأكيد المعنى المراد من تحقيرهم ختمت الآية بالإطناب بطريق التتميم بقوله: ﴿**وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ**﴾ مبالغة في عدم الاكتراث بهم، وكأنهم –على الرغم من كل ما تمتعوا به في الدنيا– لم يُمهلوا، وفي ذلك تحذير من الاغترار بالإمهال، فضلاً عن فائدة التتميم في مشاكلة الفواصل[72].

❖ **الخاتمة:**

الحمد لله وكفى, والصلاة والسلام على نبيه المصطفى, وبعد.

ها قد وصلنا الى نهاية مطافنا من بين دفاتِ كتب البلاغة والتفسير, لنقدم ثمار حصادنا هذا بذكر أهم النتائج التي خرج بها البحث مما يتسع به المقام هنا, وعلى النحو الآتي:

- من خلال تأصيل مفاهيم العنوان في التمهيد (الخطاب والسياق) تبين أن البلاغيين القدامى قد بحثوا هذه المصطلحات واعتنوا بها قبل غيرهم من المحدثين, إذ فصّلوا القول فيها وبينوا أركانها.
- ورد (الضحك) في عشرة مواضع سبعة منها منفرداً وثلاثة منها مقترناً مع البكاء, أما (البكاء) فقد ورد في سبعة مواضع, أربعة منها منفردة, وثلاثة مقترنة مع الضحك كما سبق ذكره.
- سعى البحث إلى الوقوف على أثر السياق البلاغي في الكشف عن المعاني الدقيقة لمادة البحث في الخطاب القرآني, من خلال الاستعمال والتوظيف والأداء, وما أفضاه هذا السياق أساليب وطرق بلاغية عززت المعنى المراد لها.
- دأب البحث على كشف دلالات مادتي (الضحك) و(البكاء) في الخطاب القرآني, وأثرها في تصوير حياة الإنسان بوصفهما شعور ذاتي يعكس طبيعة مزاجه في الحياة. ومن خلال عرض الآيات وكلام العلماء عليها تبين لنا أنّ أغلب معاني (الضحك) و(البكاء) مجازية ومنها حقيقي, فمثلاً معاني الضحك وجدناها تنحسر –حسب فهمنا– في خمسة صور هي: الاستهزاء والسخرية, والتعجب, والفرح وسرور, والضحك. والبكاء في سياق دلائل القدرة الإلهية, أما البكاء فصوره على النحو الآتي: الخشية والخشوع, المكر والخداع, الحزن والأسف, والوعيد والتهديد.
- بدا للبحث أنَّ دراسة النصّ القرآني بلاغياً تحليلياً كوحدةٍ متكاملةٍ يجعل القواعد البلاغية خادمةً للمقاصد القرآنية وموصلةً إليها، وبه ينكشف شيءٌ من أسرار بيانه، وبديع نظمه، وبه يتبيّن تواشج الفنون البلاغية وصولاً إلى ما يرمي إليه الخطاب القرآني من أهدافٍ وغاياتٍ.
- أثبت البحث دقة التوظيف البلاغي لمادتي (الضحك) و(البكاء) في الخطاب القرآني, فقد اتسمت هاتين المادتين بجمال الشكل والمضمون, وقوة تأثيرهما من خلال التصوير الدقيق لهما, إذ صوّرت الحدث وأوصلت المعنى المراد بأدق وصف وأبلغه.
- حاول البحث إثبات بلاغة النظم في الخطاب القرآني, كون الكلمة هي من جزئيات النظم البلاغي, وهي الأساس والخطوة الأولى في بناء الجملة, ولهذا تسبق الجمال الناشئ عن العلاقات النحوية بين المفردات.
- بدا للبحث أنَّ التعبير القرآني عند خطاب الكافرين ينتقل من حالهم في الدنيا إلى بيان حالهم في الآخرة زيادةً في تقريعهم وتوبيخهم .

كانت هذه النتائج بعض ما خرجت به مما يتسع به المقام هنا, وأرجو أن أكون قد وفقت في إلقاء الضوء على السياق البلاغي لعينة البحث في الخطاب القرآني على طريقة أهل البلاغة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الهوامش

(1) ينظر: لسان العرب, ابن منظور: 459/10، مادة (ضحك), والمفردات في غريب القرآن, الراغب الأصفهاني : 502 .

(2) لسان العرب : 14 / 82 ، مادة (بكى).

(3) تفسير القرآن , السمعاني: 2 / 333 .

(4) ينظر: العين , الفراهيدي: 4 / 222 ، مادة (خطب) .

(5) ينظر: لسان العرب : 1 / 161 ، مادة (خطب) .

(6) كشاف اصطلاحات الفنون , التهانوي : 1 / 749.

(7) ينظر: مفهوم النص والخطاب, د.محمد مصابيح : 3 .

(8) وصف اللغة العربية دلالياً , محمد محمد يونس : 3 .

(9) ينظر: مباحث في علوم القرآن , منّاع القطان: 17 .

(10) معجم مقاييس اللغة : 3 / 117 ، مادة (سوق) .

(11) ينظر: قرينة السياق : 375 .

(12) نظرية البنائية في النقد الأدبي, د. صلاح فضل : 455 .

(13) ينظر: النحو والدلالة, د.محمد حماسة عبد اللطيف : 33-36 .

(14) ينظر: البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث, مصطفى السعدني :69 .

(15) دلائل الإعجاز : 40 .

(16) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري, محمد حسنين أبو موسى : 189 .

(17) ينظر: علم الدلالة , أحمد مختار عمر: 68 -70 .

(18) اللغة والمعنى والسياق : 83 .

(19) اللغة : 231 .

(20) ينظر: الفروق اللغوية , أبو هلال العسكري : 283 .

(21) التفسير الكبير : 161/1 .

(22) ينظر: حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن, الهرري : 258/26 .

(23) سور الحواميم دراسة بلاغية تحليلية, عبد القادر عبد الله فتحي : 192.

(24) ينظر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي, د. هادي نهر : 381.

(25) التفسير البلاغي للاستفهام في القران الكريم, د. عبد العظيم المطعني: 190.

(26) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 19/ 82-83.

(27) التحرير والتنوير, ابن عاشور :١٨/١٢٩.

(28) ينظر: التحرير والتنوير :١٨/١٣٠ .

(29) البيان في روائع القران، تمام حسان :١١٩ .

(30) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود العمادي: ١٢٩ /٢٩ .

(31) ينظر: التحرير والتنوير: ٢١٤ /٣٠.

(32) ينظر: أسئلة بيانية، د.فاضل صالح السامرائي: 2 / ١٨٨-١٨٩.

(33) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن, الطبري : ١٥/ ٣٨٩-٣٩١.

(34) ينظر: نظم الدرر: ٩ / ٣٣١.

(35) ينظر: مستويات الخطاب في القصة القرآنية, فائزة محمد المشهداني, أطروحة دكتوراه ، قسم اللغة العربية/كلية التربية/جامعة الموصل، 2004م: ١٥٩ .

(36) ينظر: إرشاد العقل السليم: 4 / 225 .

(37) التحرير والتنوير: 12 / 121 .

(38) ينظر: تفسير المنار, محمد رشيد رضا: 108/12, وينظر: خصائص النظم القرآني, د.السيد الشحات:283.

(39) البحر المحيط, أبو حيان الأندلسي: 8 / 222 .

(40) ينظر: زاد المسير في علم التفسير, ابن الجوزي: 3 / 356 , وينظر: أسئلة بيانية: 2 / 141-142.

(41) البرهان في علوم القرآن , الزركشي: 3 / 227.

(42) تفسير المنار : 10 / 492.

(43) التحرير والتنوير : 10 / 281 – 282 .

(44) في ظلال القرآن , سيد قطب : 3 / 1683 .

(45) ينظر: التحرير والتنوير : 30 / 1683 .

(46) ينظر: التفسير الكبير : 29 / 279 .

(47) التحرير والتنوير : 27 / 143 .

(48) التيسير في أحاديث التفسير, محمد المكي الناصري : 6 / 119 .

(49) ينظر: التحرير والتنوير : 27 / 142 – 143 .

(50) في ظلال القرآن: 6 / 3415 – 3416 .

(51) ينظر: التحرير والتنوير : 15 / 222 .

(52) ينظر: إرشاد العقل السليم : 5 / 199 .

(53) ينظر: في ظلال القرآن: 4 / 2254 .

(54) ينظر: التفسير الكبير : 21 / 418 .

(55) ينظر: البحر المحيط : 7 / 125 – 126 .

(56) ينظر: في ظلال القرآن: 4 / 2314.

(57) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان, عبد الرحمن السعدي: 496.

(58) ينظر: نظم الدرر : 12 / 222.

(59) ينظر: الصوت اللغوي في القرآن الكريم, د.محمد حسين الصغير : 186.

(60) حدائق الروح والريحان : 13 / 336 .

(61) ينظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، الشوكاني: 3 / 13.

(62) ينظر: في التذوق الجمالي لسورة يوسف ، محمد علي ابو حمدة: ٦٩.

(63) المفردات في غريب القران: 212 .

(64) ينظر: التحرير والتنوير: 25 / 303 .

(65) ينظر: جامع البيان: 22/ 34.

(66) ينظر: الجامع لأحكام القرآن : 16/ 142.

(67) ينظر: نظم الدرر: 18/ 29 , وإرشاد العقل السليم: 63/18 .

(68) ينظر: تأويل مشكل القرآن , ابن قتيبة الدينوري : 107 .

(69) نظم الدرر : 18 / 29 .

(70) ينظر: مجاز القرآن خصائصه الفنيّة وبلاغته العربيّة, د.محمد حسين الصغير : 132 .

(71) في ظلال القرآن : 5 / 3214 .

(72) سور الحواميم دراسة بلاغية : 202 .

almasadir walmraje:

- **awlaan . alkutub :**

1. 'iirshad aleaql alsalim 'iilaa mazaya alkitab alkarim , 'abu alsewd bin muhamad aleummadi alhanfi (t982h) , dar 'iihya' alturath alearabi, birut, (d.t) , (d.t. (
2. 'asyilat bayaniat fi alquran alkarim, d.fadl salih alsamrayy , dar abn kthyr , dmshq- suria , birut-lbnan, t 4 , 1439h - 2018m.
3. albahr almuhit, 'uthir aldiyn muhamad bin yusif bin hian al'undilsii alghirnatii alshahir bi'abi hian(t 754h), thqyq: sadqi muhamad jmil, dar alfikr, bayrut, t1, 1420
4. alburhan fi eulum alquran , badr aldiyn muhamad bin bihadir bin eabd allh alzarkashiu (t794h) , tahqiq: muhamad 'abu alfadl 'iibrahim , dar almaerifat , bayrut , (d.t) , 1391h.
5. albalaghat alquraniat fi tafsir alzamkhashrii wa'athariha fi aldirasat albilaghiati, muhamad hasanayn 'abu musaa , dar alfikr alearbya, alqahirat, ta1 , (d-t.(
6. albaniyat al'uslubiat fi lughat alshier alearabii alhadith, mustafaa alsaedini , munsha'at almaearif , alqahrt , ta1 , 1407h , 1987m.
7. albayan fi rawayie alquran dirasatan lghwyt waslwbyt llns alqaranii , d.tmmam hssan , ealam alkutub , maktabat alasrt, msr, (d.t) , 2002m.
8. tawil mushakil alquran , 'abu muhamad eabd allh bin muslim bin qatibat aldiynurii (almutawafaa: 276h) , thqyq: 'iibrahim shams aldyn, dar alkutub aleilmiatu, bayrut - lubnan, (d.t) (d.t. (
9. altahrir waltanwir (tharir almaenaa alsadid watanwir aleaql aljadid min tafsir alkitab almajyd) , muhamad altaahir bin eashur (t1972h), aldaar altuwnisiat lilnashr , tunis , (d.t) , 1984m.
10. altafsir albalaghiu lilaistifham fi alquran alhakim , d. eabd aleazim 'iibrahim almataeanii , maktabatan wahibat , alqahrt , altubeat alththaniatu, 1428 h - 2007 m.
11. tafsir alqaran, mansur bin muhamad bin eabd aljabbar alsamaeani altamimi (almutawaffa: 489h), thqyq: yasir bin 'iibrahim waghanim bin eabbas bin ghnym, dar alwatin, alriyad - alsewdyt , t1 , 1418h- 1997m

12.altafsir alkabiru, fakhar aldiyn muhamad bin eumar bin alhusayn alrrazi (t606h) , dar 'iihya' alturath alearabii - byrut, t3 , 1420 h.
13.tafsir almanara, muhamad rashid bin eali rida bin muhamad shams aldiyn alqalmuniu alhusayni (t: 1354h), alhayyat almisriat aleamat lilkitab, alqahirt, t1, 1990m.
14.taysir alkarim alrahmini fi tafsir kalam almanan , eabd alrahmin bin nasir alsaedi (t1376h) , thqyq: eabd alrahmin bin maealla allwyhq , muasasat alrisalat, dmshuq- suriat , t1 , 1420h -2000 m
15.altiysir fi 'ahadith altafsira, muhamad almaki alnnasiri (almutawafaa: 1414h) dar algharb al'iislami, bayrut - lubnan , ta1 , 1405 ha - 1985m.
16.jamie albayan ean tawil ay alquran, 'abu jaefar muhamad bin jarir altabri (t310 h) , tahqiq: 'ahmad muhamad shakr, muasasat alrisalat , alqahrt , t 1 , 1420 h - 2000 m.
17.aljamie li'ahkam alquran , 'abu eabd allah muhamad bin 'ahmad bin 'abi bikr alqartabi (t671 ha), tahqyq: 'ahmad albirduni wa'iibrahim 'atfish, dar alkutub almisriat - alqahirat, t 2 , 1384h - 1964m.
18.hadayiq alruwh walrayhan fi rawabi eulum alquran , muhamad al'amin bin eabd allh al'urmy aleulawiu alhirriu alshafey, thqyq: d.hashim muhamad eali husayn mhdy, dar tuq alnajat, birut- lubnan, t1, 1421h - 2001m.
19.khasayis alnazam alquranii fi qisat 'iibrahim ealayh alsalama, da.alsid alshahaat, mutbaeat al'amanat, alqahirat, ta1, 1991m 1412h
20.dalayil al'iiejaz, eabd alqahir aljurjaniu (t471h), tahqiq: d. eabd alhamid hndawy, dar alkutub aleilmiat, biarut-labnan , t1 , 1422h - 2001m.
21.zad almasir fi eilm altafsir , 'abu alfirj jamal aldiyn eabd alruhmin bin eali bin muhamad aljawzi alqurshii albaghdadii (t597h) , t: eabd alrazzaq almhdy, dar alkitab alearabi, birut-lbnan, t1 1422h.-
22.suar alhawamim dirasatan bilaghiat tahliliat, eabd alqadir eabd allh fatahy, dar alkutub aleilmiat, birut-lbnan, t1, 2011m.
23.alsawt allaghawiu fi alquran alkariam, da.mahamd husayn alsghyr, dar almuarikh alearaby, biaruta-libnan, t 1, 2000.
24.eulim aldilalat , 'ahmad mukhtar eamr, manshurat ealam alkutub , alqahirt-msir , t 5 , 1998.
25.eulim aldalalat altatbiqiu fi alturath alearabia, di.hadi nahra, dar al'awal lilnushr, 'arubd-ali'ardn, t1, 2007m.

26.aleayn , alkhalil bin 'ahmad alfirahidi (ta175ha), tahqiq: d mahdi almakhzumi, d 'iibrahim alsamrayy, dar wamaktabat alhilal, bayrut – lubnan , ta1, 1984m.
27.fath alqadir aljamie bayn faniyin alriwayat waldirayat min eilm altafsiri, muhamad bin eali bin muhamad alshuwkani (t1250h) , dar abn kthyr, dar alkalim altayib – damashq, byrwt, t1, 1414 h.
28.alfuruq allughawiat , 'abu hilal aleaskari alfuruq fi allughat , 'abu hilal aleaskariu , dabatah wahaqaqah husam aldiyn alqudsiu , dar alkutub aleilmiat – bayrut , d.t.
29.fi altadhawuq aljamalii lisurat yusif , muhamad eali 'abu hamdat, dar albashir – eamman , ta1, 1405h – 1985m.
30.fi zilal alqurran, syd qatb(t1387h), dar alshrwq, alqahrt, t 34 , 1425h – 2004m
31.qarinat alsiyaq , d. tamam hisan , bahath quddim fi (alkitab altidhkarii lilaihtifal bialeid almuyawii likuliat dar aleulum) mutbaeatan eubayr lilktab, 1413 h 1993m
32.kashaf aistilahat alfunun , muhamad bin eali abn alqadi muhamad hamid bin mhmmd sabir alfaruqi alhinafii althanwi (almutawafaa: baed 1158ha), tahqiq: da. eali dahrwj, maktabat lubnan nashrun – birut, t1 , 1996m.
33.lisan alearab , 'abu alfadl jamal aldiyn muhamad bin mukrim bin manzur al'afriqi (t711h) , dar sadr, bayrut – lubnan , ta3 , 1414 ha – 1995
34.allughat walmaenaa walsiyaq, jun laynz, taerib: eabbas sadiq alwhab, dar alshuwuwn althaqafiat aleamat, baghadadi, t1, 1987m.
35.allighatu, findris , tarjamat aldawakhilii walqasasi, 231 maktabat al'anjilu almisriat sanat 1950m.
36.mubahith fi eulum alquran , manaae bin khalil alqatan (almutawafaa: 1420ha), maktabat almaearif lilnashr waltawzie, alriyad, ta3, 1421h– 2000m.
37.majaz alquran khasayisuh alfnyt wabalaghatuh alerbyt, d.muhamid husayn alsaghir , dar almuarikh alearabiu , birut–lbnan, altubeat al'uwlaa, 1418h – 1999 m.
38.maejam maqayis allighati, 'ahmad bin faris bin zakariaa alqazwinii alraazi (t395h), ta: eabd alsalam muhamad harun, dar alfkr, t1, 1399h – 1979m.
39.almufradat fi ghurayb alquran , 'abu alqasim alhusayn bin muhamad almaeruf bialrraghib al'asfihanii (t502h) , thqyq: safwan eadnan aldawdy, dar alqulum, aldaar alshshamiat – dimashq bayrut, t1 , 1412h.
40.mafhum alnas walkhitaba, da.mihamid masabih ,dar nashiri lilnashr al'iiliktruni , (d–t) , 2009m.

41.alnahw waldalalat, di. muhamad hamasat eabd allatifa–mdkhil lidirasat almaenaa alnahwii aldilali, t 1, alqahirt,1983m.
42.nazariat albinayiyat fi alnaqd al'adbi,d.salah fudal, dar alshuruq, alqahrt, t1,1419h – 1998.
43.nazam aldarar fi tanasab alayat walsuwr , burhan aldiyn 'abi alhasan 'iibrahim bin eumar albqaey (t885h) , dar alkitab al'iislami, alqahrt , ta1 , 1404 – 1984.
44.wasaf allughat alearabiat dlalyaan, muhamad muhamad yunis ealay, manshuirat jamieat alfatih, liabya, 1993.

❖ **thanyaan. alrasayil aljamieiat:**

1. mustawayat alkhitab fi alqisat alquraniati, fayizat muhamad almashhdani, 'atruhat dukturah , qism allughat alearabita/kliat altarabita/jamieat almawsil, 2004m.